﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن العلمِ الإلهيِّ إلى الامْتِنانِ الرّبّانيِّ

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة علمَ اللّه تعالى وإحاطتَه بخَلْقِ الإنسان وتقديره؛ ناسب الانتقالُ إلى مثالٍ من أمثلةِ واقعِ الإنسان الكاشفِ عن شَخْصِه وطريقة تفكيره وحِرْصِه، فذَكَرَ ما خلقَ اللّهُ تعالى له من الأرض، وما أوْدَعَها مِنَ الرِّزق، الّذي يَحْرِص عليه الإنسانُ في حِلِّه وترحاله، فهو انتقالٌ مِن ذِكْرِ العلم بواقعِ الإنسان، إلى ذِكْرِ دليلٍ عَمَليٍّ، يَجْمَعُ البُرْهانَ على العلمِ الإلهيِّ، والامتنان الرّبّانيِّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَلُولًا﴾: صيغةُ مبالغةٍ على زنَةِ فَعول، والجذر اللّغويّ مِنْهُ: (ذلل)، يُقال: ذَلَّ يَذِلُّ، ودابَّةٌ ذَلولٌ: بَيِّنَة الذُّلِّ، والذُّلُّ: اللّينُ والانقيادُ، والذَّلول المُنْقاد من الدّوابِّ[1]، وأصل معناه: الخُضوع، والاستكانة، واللّين، فالذُّلُّ: ضِدُّ العِزِّ[2]، و"الذُّلُّ: ما كان عن قهرٍ، يُقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا، والذِّلُّ ما كان بعد تصعُّب، وهي ذَلولٌ، أي: ليستْ بصَعْبةٍ"[3]، ومعنى الذّلول هنا: سَهلةٌ لَيِّنةٌ لا يَمتَنِعُ المَشيُ عليها[4].

2) ﴿مَنَاكِبِهَا﴾: أطرافها وجوانبها، والمَنْكِبُ: مجتمَعُ ما بين العَضُد والكتِف، والجمع: مناكبُ، وقد استُعير ذلك للأرض استعارةَ الظّهور لها[5]، وأصلُ (نكب): يدُلُّ على مَيلٍ في شَيءٍ، والأنْكَبُ:

(1) الخليل، العين: (ذل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ذل).
(4) الواحديّ، البسيط: 22/ 53، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 408.
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نكب).

الَّذي كَأَنَّهُ يَمْشي في شِقٍّ[1]، يُقال: نَكَبَ عن الطَّريق يَنْكُبُ نُكوبًا، أي: عدلَ[2]، والمعنى هُنا: نواحيها وطُرُقها وفِجاجها[3].

3) ﴿ٱلنُّشُورُ﴾: البَعثُ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[4]، ومنه: نَشَر اللهُ تَعالى الميِّتَ: أحياه وبعثه، وإذا حَيّ انبسطَ؛ لأنَّ البعث إثارةٌ وإقامَةٌ يظهَر فيهما الامتدادُ، وهو انبساطٌ[5]، والمعنى هُنا: البَعثُ والمَرجِعُ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكيرُ بنِعَمِ اللهِ تَعالى في تذليلِ الأرض وتسخيرِها للعِبادِ

تَذْكُر الآية الكريمةُ منّةَ اللهِ تعالى على عباده بنعمتِه العظيمة؛ إذ سخَّر لهم الأرضَ، وهيَّأها؛ لتكون سهلةً مذلَّلةً، مطاوعةً لمنافعهم، فجعلها قرارًا يمشون على ظهرها، ويتنقَّلون في أرجائها وأطرافها، ويُسافرون في أقطارها طلبًا للرِّزق والمَعاش، ولم يجعلْها صعبةً عسيرةً تمنعُهم من السَّير أو الانتفاع بها، بل أودع فيها أرزاقَهم، ومكَّنهم من استخراج خيراتها والانتفاعِ بما أخرج منها مِنَ المنافع، ثُمَّ نبَّههم سبحانه أنَّ مرجِعَهُم في النِّهاية إليه وحدَه؛ إذ يُبعَثون بعد موتهم للحساب والجزاءِ على ما قدَّمت أيديهم[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فَصْلِ الآية عمّا قبلَها:

العَودُ إلى الاستدلالِ المقرونِ بالامتنانِ الدّالِ على تمامِ القدرة والعلم

قولُ اللهِ تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ استئنافٌ فيه عَودٌ إلى الاستِدلالِ المقرونِ بالامتنانِ، فاللهُ تَعالى بعدَما أقامَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نكب).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح: (نكب).
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 312.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نشر).
(5) محمَّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نشر).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 215، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 179.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 215، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 179، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 313، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 877.

البُرْهانَ بخَلْقِ الإنسان؛ انتقلَ إلى ما هو أعظمُ وأشمل دلالةً على قدرتِه وعِلْمِه، وهو خَلْقُ الأرض الَّتي تَحْتَضِنُ البشَرَ جميعًا، فالإنسان ليس إلّا جزءًا منها، بل هو من مادَّتها أصلًا، كما قال تعالى: ﴿*مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [طه: 55]، وجاء الامتنانُ في جَعْلِ الأرض مذلَّلةً مُهيَّأةً لهم: يسيرون في أرجائِها، ويَنْتَفِعون بخيراتها، ويستخرجونَ أرزاقَهُم منها، ثُمَّ ذُيِّل ذلك بتذكيرهم أنَّ النُّشور سيكون منها وإليه سُبحانه وحدهُ، فلا ملجأ ولا مآبَ إلّا إليه[1].

نوعُ القَصْرِ وبلاغَتُه:

اقتضى تعريفُ جُزْأي الجملةِ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ قَصْرَ الخلْقِ والرَّزْقِ على الله تعالى، وهو يَحْتَمِلُ أن يكون قَصْرَ قلبٍ؛ إذ نُزِّل المخاطَبون منزلةَ مَن يَعْتَقِد أنَّ الأصنامَ هي الَّتي خلقَتِ الأرض؛ إذْ إنَّ ادّعاءهم ألوهيَّتَها يقتضي إلزامَهم بهذا الظَّنِّ الباطل، وإن لم يُصرِّحوا به بألْسِنَتِهم[2]، فالآية تُبطِل مُقْتَضى ادّعاء المُشْرِكين ما اعتَقَدوهُ في الأصنام، ومعاملتها معاملةَ الخالِق المُسْتَحِقّ للعبادة وحدَهُ دونَ سِواهُ، ويَحْتَمِل أن يكون القَصْرُ محمولًا على الإفرادِ، كأنَّه قال: هو الرّازق لا آلهتُكُم وأصنامُكم؛ ذلك أنَّ المشركين اعتقدوا استحقاق الآلهةِ العبادةَ، وأشركوا مع الله تعالى غيرَه، فأفْرَدَ القصرُ الحكمَ على الله تعالى، ونفاه عن غيره، والإفرادُ هو الأبيَنُ في هذا البابِ.

الخالِقُ هو المُسْتَأْثِر بجَعْلِ الأرض ذلولًا وسببًا في الرِّزق

نوعُ اللّام وفائِدَتُها:

اللّام في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ للاختصاص، جاءت في سياق الامتنانِ؛ إذ يَمُنُّ الله تعالى على بني آدمَ بتَمْكينِهِم مِن هذه الأرض، وإعطائِهم القُدراتِ؛ لتَحْصيلِ خيراتها، أي: إنّ الله تعالى

إظهارُ المِنَّة وتأكيدُ تكريم الإنسانِ على سائِرِ الخَلْقِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 31.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32.

خلَقَ الأرضَ، وهيّأها لمنفعَةِ الإنسان؛ لتكونَ مسخّرةً له، يَنْتَفِعُ بِها في معاشِه، ويستخرجُ منها أرزاقَه، ويستقرّ عليها، ويمشي في مناكِبِها، ويسلُك سُبُلَها[1]، ففائدةُ اللّام هنا إظهارُ المِنّة وتأكيدُ تكريمِ الإنسانِ وتفضيلِهِ على كثيرٍ مِنَ الخَلْقِ.

بلاغَةُ الخِطاب وشُمولُهُ:

لفتُ الأنظار إلى عظيمِ المِنّة الإلهيَّة الشّاملة للسّابقين واللّاحقين

الخطابُ في القيد ﴿لَكُمُ﴾ موَجَّهٌ إلى جميع النّاس دون استثناءٍ؛ ليَشْمَلَ المُخاطَبين الأوائلَ ومَن يأتي بعدَهُم، فيكون أبلغَ في التَّذكير بفَضْلِ الله تعالى، والمقصودُ منه لَفْتُ أنظار الخَلْقِ إلى عظيمِ المِنّة الإلهيَّة عليهم، فقد أنشأهُم اللّهُ تَعالى، وهيَّأ لهم الأرضَ؛ لتكون مقرًّا لخلافَتِهم، وميدانًا لعِمارَتِهم، وذلَّلها تسخيرًا، فجعلها قابلةً للانتفاع، ميسَّرةً لمعاشِهم، مُطاوعةً لخُطواتِهم، بما أودع فيها من أقواتٍ، ومعادنَ، ومنافعَ، وأدوات عملٍ وصناعةٍ، وبهذا الخطاب يظهر إحسانُ الله تَعالى إلى عباده، ويُذكِّرهم بواجب الشُّكر له وحدَه؛ إذْ هو الَّذي مهَّد لهم سُبل الحياة، وأعطاهم أسبابَ البقاء والرِّزق، دون أن يكون للأصنام أو غيرها أدنى نصيبٍ في ذلك[2].

دلالَةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾:

الأرضُ المعهودةُ هي المرادُ في غالب الخِطاب القرآنيّ

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ للعَهْدِ العلميِّ؛ فالمُراد بها الأرضُ المعمورة ببني آدمَ، أي: هذه الأرض الَّتي يعيشونَ عليها، ويُشاهدونها، فجاء التَّعريف؛ ليَرْبِط المُخاطَبين بما يُباشرونه مِن مَعايِشِهم ومواطنهم، وليكون أبلغَ في إقامة الحُجَّة عليهم؛ إذ لا يَمْلِكون إنكارَ ما هو حاضِرٌ بَيْنَ أيديهم مُشاهَدٌ في حياتِهِمُ اليوميَّة من تذليلِ الأرض وتسخيرها لمنافِعِهِم[3].

(1) نجم الدّين الكبرى، التَّأويلات النَّجميَّة: 6/ 188، وعبد الملك قاسم، عقد الجمان: 1/ 1213.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 15/ 1060.
(3) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 4/ 234.

نُكتَةُ تقديم القَيْدِ على المفعولِ:

الاهـتـمـامُ بما قُدِّم، والتَّشويق إلى ما أُخِّر

قُدِّم قيد ﴿لَكُمُ﴾ على مَفعولَي الجَعْلِ مع أنَّ حقَّه التَّأخُّرُ عنهُما؛ ليخدم غرضًا بلاغيًّا، وهو الاهتمام بما قُدِّم، والتَّشويق إلى ما أُخِّر، فالتَّقديم أبرزَ عنايةَ اللهِ تعالى بعباده؛ إذ جُعِل التَّذليل والتَّهيئة في الأرض أوَّلًا وأساسًا لمنافعهم، فإنَّ كُلَّ ما في الأرض مُسَخَّرٌ ومُهيَّأٌ لأجلكم أيّها النّاس، ومن جهة أخرى؛ فإنَّ تأخير ذِكْرِ الأرض بعد التَّشويق يُحدِث في النَّفس تَرَقُّبًا وانتظارًا لمعرفة الشَّيء الَّذي جُعِل لمصلحة المخاطَبين، فيرسخ عند السّامع أبلغَ رُسوخٍ، ويَزْداد أثَرُ الامتنانِ في القُلوب[1].

بلاغَةُ التَّعبير بصيغَةِ (فعول):

تسخيرُ الأرضِ للإنسانِ شامِلٌ لجميعِ منافعِهِ وكامِلٌ احتياجاتِه

جاء لفظ ﴿ذَلُولًا﴾ على وزن (فعول)، وهي صيغَةُ مُبالغَةٍ تَزيدُ المعنى شمولًا، فكما يُقال: دابَّةٌ ذَلول، أي: مِطواعةٌ مُنقادةٌ لا صعوبةَ في ركوبها أو قيادها، استُعمِل هُنا؛ للدّلالة على أنَّ الأرض قد سُخِّرت للإنسان تسخيرًا كاملًا، بحيث غدَتْ مُهيَّأةً لِكُلِّ ما يحتاجه من أسبابِ الحياة ووسائل المعيشة، فذَلَّلها لهم، ووَطَّأها، وفَتَقَ فيها السُّبُلَ والطُّرُقَ الَّتي يَمشون فيها، وأودعها رِزقَهم، فذكَرَ تهيئةَ المَسكَنِ للانتِفاعِ والتَّقلُّبِ فيه بالذَّهابِ والمجيءِ، والأكلِ ممّا أودع فيها للسّاكنِ، بحيث يسهُل الاستقرارُ عليها، والسَّيرُ في أرجائها، والانتفاعُ بخيراتها، وهذا يَحْمِلُ تذكيرًا بآيات الرُّبوبيَّة وآثار الإنعام؛ ليوقِظَ النُّفوسَ الغافلةَ، ويدعوها إلى التَّدبُّر والاعتراف بالمُنعم، وترك العناد والجحود[2].

الأرضُ مذلَّلةٌ للنّاس انتفاعًا ومشيًا، والإنسان ينتقِلُ فيها مِن دارٍ إلى أخرى

بلاغَةُ التَّشبيه والاستعارة:

في قول اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 7.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 225، وابن القيم، الفوائد، ص: 17، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32.

﴿فِي مَنَاكِبِهَا﴾ استعارةٌ؛ إذ شُبِّهت الأرض بدابّةٍ، وذُكِرَ المشبَّهُ، وحُذِفَ المشبَّهُ به، ثُم رُمِز لها بالذّلول على سبيل الاستعارةِ المكنيَّة، وشُبِّه الانتفاعُ بالأرض وتيسيرُ سبُلِها والمشيُ فيها بالذّلول، وهو وصفٌ يُطلَق على الدّابّة، فصُرِّحَ بالمشبّه به، وحُذِف المشبَّهُ، وهو يُسر الانتفاع على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة؛ إذْ أُطلِق عليها وصفُ الذَّلول بجامع تيسيرِ الانتفاع بها، مع كونِها في أصلها صُلْبة قويَّة، كما تُذلَّل الدّابّة العصيَّة بعد صعوبة، فيسهل ركوبُها والانتفاع بها، فذُكِر المُشبَّه ﴿ٱلْأَرْضَ﴾، وحُذِف المشبَّه به (الدّابة)، وأُبقيت الصِّفة المُشتركة، وهي الذّلول، وزاد البيان بقَرْن الكلام بما يُناسب المُشبَّه به من لوازمه، وهو قوله: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾؛ إذ جُعلت الأرضُ ذاتَ مناكِبَ على سبيل التَّخييل؛ إذِ المَنكِبُ في الأصل ملتقى الكَتِفِ والعَضُدِ من الدّابّة، وهو من أرقِّ المواضع الَّتي يضَعُ عليها الرّاكبُ قدمَهُ عندَ الرُّكوب، فجاء التَّعبير بذلك؛ إشارةً إلى فرط التَّذليل ومبالغته، فكأنَّ المشيَ على الأرض بمنزلة ركوبِ الدّابّة الذَّلول، والانتفاعَ بخيراتها من نباتٍ ورزقٍ أشبهُ بالانتفاع بما يُستفاد من الأنعام من ركوبٍ ولحمٍ ولبنٍ، وبذلك جمعَت الاستعارةُ بين الكناية بالأرض عن الدّابة، والتَّصريح بالوصف المشترك ﴿ذَلُولًا﴾ والتَّجريد بذكر المناكِب؛ للدَّلالة على سعة الأرض وامتداد نواحيها، في صورةٍ بلاغيَّةٍ مؤثِّرةٍ تُقرِّب المعنى إلى الأذهان، وتُبرز تمام النِّعمة وتسخير الأرض للإنسان[1].

وقد يُحمَل التَّشبيه هُنا على معنى التَّشبيه البليغ[2]، كما هو الظّاهر في أمثاله، نحو ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: 22]، ونحو: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ [النبأ: 6]، على أنَّ الذَّلول من الذِّلِ - بالكسر - ويكون في الكلام تشبيهُ الأرض بالدّابّة المُذلَّلة في سهولة الانقياد والانتفاع بها؛ إذ حُذِف وجه الشَّبه وأداة التَّشبيه، وأُثبت المُشبَّه ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ والمشبّه به في صورةِ خبَر ﴿ذَلُولًا﴾، فصار كأنَّ الأرض هي بذاتها دابَّةٌ مُنقادةٌ، وهذا أبلغ في بيان شِدَّة تيسيرها وتسخيرها للإنسان.

وتكمُنُ القيمَةُ الإرشاديَّة في ذلك كلِّه بأنَّ الإنسان يركَبُ الأرض في حياته، ويستقرّ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 580، والقونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 202، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32، والصّابونيّ، الإبداع البيانيّ: 1/ 361.

(2) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 202، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 16.

فيها بعد مماتِهِ، وهي تَحْمِلُه حيًّا وميّتًا من دار الدُّنيا إلى دار الآخرة، وهو غيرُ شاعرٍ بذلك الحَمْلِ على الأرضِ الذّلول.

بلاغَةُ الكناية وفائدَتُها:

انقياد الأرض وتسخيرُها للإنسانِ مِن أعظَمِ النّعم وأكملِ المِنَن

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ كنايةٌ عن صفة الانقياد والتَّسخير والتَّطويع الَّتي أودعها اللّهُ تعالى في الأرض؛ لتكون مُهيَّأةً لخدمة الإنسان وتيسير مَعاشه، وهي صفةٌ معنويَّةٌ دقيقةٌ، وقد ظَهَرَ هذا التَّذليل جليًّا عبر العصور، ولا سيّما في زماننا؛ إذ استثمر الإنسانُ كُلَّ صور الانتفاع بالأرض، فاستخرج معادِنَها، وحلّل عناصِرَها، وشطر ذرّاتها، واستَنْبَت نباتاتِها، وكشف أسرارَ مخلوقاتها، وغاص في أعماق بحارها، وطار في أجواء فضائِها، وكلُّ ذلك من مَظاهر تذليل الأرض لبني آدم بإرادة اللّهِ تعالى ومنَّته[1].

دلالَةُ تقديم ذِكْرِ تذليل الأرض على الأمر بالمَشْيِ في مناكِبِها:

تقريرُ الامتنان وتهيئة السَّكَنِ قبلَ نزول السُّكّان

قدَّم النَّظم الكريمُ بيانَ تذليل الأرض وتسخيرها للإنسان، في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ قبل الأمرِ بالسَّعي فيها: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾؛ وذلك ليُقرِّر الامتنانَ أوَّلًا، ثمّ يوجِّه إلى العمل ثانيًا، دون العكس، فلم يأمر بالمشي فيها، ثُمّ يُعلِّل ذلك بذِكْرِ تذليلِها، ففي هذا التَّقديم إشارةٌ إلى أنَّ إباحة الانتفاع بما في الأرض هي دعوةٌ إلى الحركة والسَّعي والجدّ في طلب الرّزق، بعد أن هيّأها اللّهُ تَعالى وسهّلها لعباده، وبهذا يضع القرآنُ الكريم الأمّة في موقع العزَّة والقُدْرَةِ على الإنتاج والاكتفاء، ويُشعرها أنَّ أيَّ تقصيرٍ في عُمران الأرض أو استثمار خيراتها إنَّما يعود إلى إهمالها وتفريطِها، لا إلى نقصٍ فيما سخَّره اللّهُ تَعالى لها[2].

(1) الحجازيّ، التَّفسير الواضح: 3/ 715.
(2) عطيّة سالم، تتمَّة أضواء البيان: 8/ 238، 239.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

المشيُ في جوانب الأرض نتيجةٌ مبنيّةٌ على تذليلِها وتسخيرها

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ تحتَمِلُ أن تكون فصيحةً، فهي تُفصح عن مقدَّر محذوفٍ فيه معنى الشَّرط، والمعنى: إذا تبيَّن لكم أنَّ اللّٰهَ تَعالى جعَلَ الأرض مُذلَّلةً ميسَّرةً؛ فامشوا في جوانبها، وانتَفِعوا بها، فجاءت الفاءُ؛ لتَرْبِط الأمرَ بالمشي بما تقرَّر من نعمة التَّذليل، وتحتمل التَّفريعيّة دلالةً على أنَّ السَّير في الأرض وطلبَ الرِّزق إنَّما هو أثر طبيعيٌّ ولازمٌ لِما أنعم اللّٰهُ تَعالى به مِن تَسْخيرِها، والمعنيانِ مُتقارِبان[1].

غرَضُ التَّعبير بصيغَةِ الأمر:

إقامَةُ الحجَّة على العبادِ ببيان التّناقُضِ في استِجابَتِهم لأهوائِهم وإعراضِهم عن الحقِّ

جاء فعلُ (امشوا) بصيغة الأمر، وهو دالٌّ على الإباحةِ في الانتفاع، بما سخّره اللّٰه تَعالى في الأرض، ويحتمل أن يكون خَبَرًا سيق بلَفْظِ الأمر زيادةً في تقرير التَّذليل، أي: امشوا الهوينى بسُهولةٍ ويُسرٍ، سواءٌ أكنتُم تسيرون ساعينَ في طلب المكاسب أم غيرَ ساعين، دون مَشقَّة تُلجئكم إلى الوَثْبِ أو الزَّحف[2]، وتحتمل صيغةُ الأمر أيضًا معنى الدّوام، أي: استمرّوا في المشي والانتفاع بما في الأرض، وفي ذلك تذكيرٌ بنعمةِ اللّٰهِ تَعالى وامْتِنانه عليهم بتسخير الأرض لَهُم وتهيئَتِها لمصالحِهم[3].

والَّذي يظهَرُ أنَّ غرضَ الأمر هو إقامةُ الحُجّة والإلزامُ، كأنّه قيل: ما لكم إذا قيل لكم: امشوا في طلب رزقكم، وكلوا منهُ؛ استَجَبتُم بواقع الحال المُشاهَد، وإذا قيل لكم: آمنوا بالبعث؛ أعرضتُم بواقع المقالِ المَسْموع؟ فهو تلويحٌ بعَسارةِ النّفوس وعدمِ صِدْقها.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 7، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 89.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 245.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 591، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 215، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32.

بلاغَةُ حرفِ الظَّرفيَّة:

آثَر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ حرفِ الظَّرفيَّة دون الاستعلاءِ، في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾، والمشيُ يكون فوق الأرضِ، وذلك لبيانِ أنَّ الإنسانَ يَمْشي في أعماق جوانب الأرض، ويزرَعُها ويستخرج خيراتِها، ويعمَلُ على كشْفِ أسرارها، فهي ليستْ مُجرَّدَ طريقٍ يمشي عليه، فالمشي في الأرض بعد تذليلِها لا يعني المشيَ المعهودَ، وهو الانتقالُ بين أنحائها، بل البحث فيها وكشف أغوارِها، وطلَب الانتفاع من بَواطِنِها، وهو ما يُعبِّر عنه حرفُ الظَّرفيّة بجَلاءٍ.

المَشْيُ في الأرض ليس انتقالًا فحسبُ، بل هو استخراجٌ للكنوزِ وبحثٌ عن الخيرات

غرَضُ جَمْعِ لفظ ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ وتعريفِهِ بالإضافةِ:

المناكِبُ جَمْعُ: مَنْكِبٍ، وهو مُلتقى الكتِف مع العَضُد، والمُراد به هُنا: جوانِبُها أو طرُقُها وأطرافُها، وفي جمع ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ مع إضافتهِ للأرض تصويرٌ لكَثْرةِ جوانِبها وطُرُقِها وفِجاجِها، وهو إشارةٌ إلى شِدَّة تسخيرها وفَرْطِ تذليلها للإنسان[1]، مع الإشارة إلى تنوُّعها، فهي مناكبُ تصلُحُ للزِّراعة، وأخرى للصِّناعة، وأخرى للسَّكن، وأخرى للنَّقل والتِّجارة.

كثرةُ جَوانبِ الأرض المتنوِّعة المنافعِ والمتعدِّدةِ الأشكالِ

بلاغَةُ الاستِعارةِ في لفظ ﴿مَنَاكِبِهَا﴾:

شُبِّهت الجوانِبُ بالمناكِبِ في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾، فذُكِر لفظُ المُشبَّه به، وأُريدَ به المُشبَّه على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة؛ ذلك أنَّ المَنْكِب هو مُلْتقى العَضُد بالكتِف، وشُبِّهت به الجبالُ والمُرْتَفعات مِن حيثُ العلوُّ والارتفاع، فاستُعير للأرض في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾، واستُعير لها لفظُ الظّهر أيضًا في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: 45][2].

إبرازُ شِدَّة تذليل الأرضِ وتَسْخيرها للإنسانِ

(1) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 19.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 89.

دلالَةُ عَطْفِ الأمْرِ بالأكل عَلى الأمْرِ بالمَشْيِ:

الجَمْعُ بَيْنَ نعمَةِ الحركَة والتَّنقُّل ونعمةِ القوتِ والمَعاش

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ على الأمر بالمَشْي في جوانب الأرض؛ للانتقالِ من الامتنانِ بتيسير السَّير فيها إلى الامتنان بتيسير الانتفاع بخيراتها وأرزاقها، فهو مظهَرٌ ثانٍ من مظاهر تسخيرها أن أوْجَدَ فيها كلَّ ما يحتاجه الإنسان لرزقه، فجمَع لهم بين نعمة الحركة والتَّنقل ونعمة القوت والمعاش، ولا يتحقّق الأكل إلّا بعد المشي في طلب الرّزق[1].

غرَضُ الأمْرِ بالأكْلِ:

تذكيرُ العِباد بعَطايا اللهِ تَعالى ومِنَنِه

جاء الأمر في قوله: ﴿وَكُلُواْ﴾ مرادًا به الإباحةُ زيادةً في الامتنان؛ إذ يُذكِّر العبادَ بأنَّ ما يأكلونه من رِزْق إنَّما هو عطيَّةٌ من اللّه تَعالى الَّذي ذلَّل لهم الأرض، وهيَّأ لهم مواردَها وخيراتِها[2].

دلالَةُ إضافَةِ لَفْظِ الرّزق إلى الضّمير:

التّلويح بالتّهديد في سياق الامتِنانِ

أُضيف لفظ الرِّزق إلى الضّمير العائدِ إلى اللّهِ تَعالى: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، وهي إضافةٌ بمَعْنى اللّام، فهي للاختصاص، وإمّا بمعنى (من)، أي: إنَّ الرِّزق هو ملك للّهِ تَعالى وحده، لا يملِكُ أحَدٌ أن يخلقَه، أو يَضْمَنَهُ سِواه، وفي ذلك تذكيرٌ للإنسان بأنَّ ما ينالُه مِن خيراتِ الأرض إنَّما هو عطاءٌ من اللّه تَعالى وفضلٌ، لا بكَسْبِه وحده، فينبغي أن يُقابلَه بالشُّكر والطّاعة[3]، وفي الإضافة تلويحٌ بالتّهديد في سياق الامتنان، فإذا كان الرّزقُ رزقَه؛ فعلى العبادِ أن يَخشَوا منعَهُ؛ إن هم أشركوا به غيرَه.

بلاغَةُ العَطْفِ ودلالتُه:

عَطْفُ الغايات على الوسائلِ تتميمٌ للمَعاني وتكميلٌ للمَقاصِدِ

عُطِف قولهُ تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ على الأمر بالمَشْي والأكل، مِن عطف الغاية على وسائلها، أي: إذا مشيتم في طلبِ الرّزق أيّها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 246.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 591.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 591.

النّاس، وأكلتم منه، وانتفعتُم، وعَلِمْتُم أنَّ الخالقَ الرّازق ﷻ هو مَن أوجَدَ لَكُم ذلك؛ فآمنوا به حقَّ الإيمان، فإليه النُّشور والحساب والجزاء، فالدُّنيا مزرعَةُ الآخرة، وطريق الحساب، فالعطف "تتميمٌ لمناسبة ذِكْرِ الأرض، فإنَّها مثوى النّاس بعد الموتِ"[1].

بلاغَةُ استِعمالِ حرفِ (إلى):

بـدايـةُ الطَّـريـقِ المـشيُ في الأرض ونهايتُهُ إلى اللهِ تعالى

جاء استِعمالُ حرفِ (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾؛ ليُفيد الغايةَ والانتهاء، أي: إنَّ المرجِع والمصير المحتومَ بعدَ الموت هو إلى اللهِ تَعالى وحدَه لا إلى غيره، وفيه إيحاءٌ بالتَّحذير والتَّنبيه على أنَّ على الإنسانِ أن يُقيم في الأرض، ويأكُلَ مِن رزقها، وهو مُستشعر أنَّ مصيره منَّتِه إلى الله سُبحانَهُ، فيستعدَّ بلقاء عمَلِه، فيَجْتَنِب الكُفْرَ والمعاصيَ سِرًّا وجَهرًا[2]، وتظهر بلاغةُ استعمالِ (إلى) دون اللّام في مناسبَةِ السّياق، فإنَّهُ لمّا ذكر المَشْي في الأرض الذّلول؛ ناسَب بيان غايةِ المَشْي على طريقِ الإيماء وهو البعثُ، فالبدايةُ كانت مِن الدُّنيا، والغايةُ كانت إلى الآخرة، فذِكْرُ حرفِ (إلى) نبَّه إلى البداياتِ بذِكْرِ الغاياتِ.

نكتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمجرور على المُسْنَدِ إليهِ:

الـعـنـايَـةُ والاهـتـمـامُ بالـنُّـشورِ دليلُ موقعِه وبرهانُ أثَرِهِ

قُدِّم ذِكْرُ الجارِّ والمجرور على المسنَدِ إليه، في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ للاهتمام[3]، لا الاختصاص؛ إذْ لم يدَّعِ أحدٌ أنَّ هناك نشورًا لغيرِ الله تعالى، ودلالة الاختصاص ليست باعتبارِ السّياق بل باعتبار أصلِ المَعْنى، فالمرجِعُ بعدَ البَعْث مقصورٌ على اللهِ تَعالى وحدهُ دونَ سِواهُ، وفي ذلك توجيهٌ إلى وُجوب شُكْر نِعَمِه وتعظيم آلائِه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 591.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32.

معنى تعريفِ لَفْظِ ﴿ٱلنُّشُورُ﴾:

التَّعريف في لفظ النُّشور هو تعريفُ الجنسِ، فيُفيد العمومَ والشُّمول، أي: كُلّ نشورٍ، فيدخُلُ فيه نشورُ المُخاطَبين وغيرهم[1].

بلاغَةُ الكِنايَةِ:

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ كنايةٌ تَحْمِلُ في طيِّها تحذيرًا وتنبيهًا، فهي تذكيرٌ بأنّ المرجِعَ إلى الله تَعالى وحده بعد البعث للحساب، فلا يصحّ للعبدِ أن يلجأ في طلَبِ رزقه إلى الحرام؛ لأنَّه سَيُسْأَلُ عنه، وأيضًا فإنّها تقطَعُ تعلُّقَ القَلْبِ بالدُّنيا، وتَمْنَعُ الرّكون إليها؛ إذِ المَقْصودُ أنْ تكون الدُّنيا مزرعةً للآخرة، لا مستقَرًّا دائمًا، وفيها أيضًا تقريرٌ لعظمة اللّهِ تَعالى بتَذْكيرِ عبادِهِ بوَحدانيَّته، وقُدرته على الإحياء بعدَ الإماتة، وحثِّهم على الاستعدادِ لِلقاءِ ربِّهم بالعمل الصّالح[2].

التَّذكير بأنَّ المرجِعَ إلى اللهِ تَعالى وحدَهُ بعدَ البَعْثِ للحِساب تحذيرًا وتنبيهًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 32.

(2) ابن القيِّم، الفوائد، ص: 18.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-00-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"